مجلة "آفاق فكرية"

ص. ص. 77 - 88

ر ت م د: 2353 - 0367

ر ت م د إ: 2602-5507

مذكرات الأسير تيدنا مصدر هام في تاريخ بايلك الغرب (1779ـ1782م)

Prisoner Thédnat's memoirs are an important source in the history of The West Bayk (1782-1779)

خلوط أسماء

جامعة ابن خلدون بتيارت (الجزائر)، مخبر الدراسات التاريخية والأثرية بشمال إفريقيا،

asmab301@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022-06-15 تاريخ القبول: 2022-11-24 تاريخ النشر: 2023-12-30

ملخص:

شهد الحوض الغربي للبحر المتوسط ومنذ أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث تفشي ظاهرة الأسر، وذلك نظرا للصراع الديني بين المسلمين والنصارى، حيث كان للقرصنة البحرية المتبادلة بين الطرفين دور كبير في ازدياد أعداد الأسرى، والذي كان ينتهي مطاف الكثير منهم إلى العبودية والرق، إلّا أنّه وفي الجزائر حظي بعض الأسرى، خاصة المتعلمين منهم، بمعاملة خاصة، حتى أنّهم تقلّدوا وظائف سامية في قصور الدايات والبايات، ممّا سمح لهم بالوقوف عن كثب حول واقع الحياة العامة في الجزائر خلال العهد العثماني، وعن الأعمال السياسية والعسكرية لحكام الجزائر.

وتعتبر مذكرات الأسير تيدنا إحدى المصادر القيمة التي تحمل بين طيّاتها مادة خبرية هامة حول حالة الأسرى الأوربيين في الجزائر، كما أنّ مذكراته تزخر بمادة علمية قيّمة عن المنطقة الغربية من الجزائر خلال القرن 18م، وعن أعمال الباي محمد الكبير السياسية والعسكرية في منطقة بايلك الغرب.

كلمات مفتاحية: الأسرى؛ القرصنة؛ تيدنا؛ بايلك الغرب؛ الباي محمد الكبير.

Abstract:

Since the late Middle Ages and the beginning of the modern era, the western basin of the Mediterranean has witnessed the spread of the phenomenon of families, due to the religious conflict between Muslims and Christians, where the maritime piracy exchanged between the two parties played a major role in the increase in the number of prisoners, many of whom ended up in slavery and slavery, but in Algeria some prisoners, especially those educated, received special treatment, even assumed high positions in the palaces of dayat and bay, allowing them to stand closely about the reality of public life In Algeria during the Ottoman era, and about the political and military actions of algeria's rulers.

The memoirs of The Prisoner Thédnat are one of the valuable sources that carry with them important news material about the situation of European prisoners in Algeria, and his memoirs are full of valuable scientific material about the western region of Algeria during the 18th century, and about the political and military actions of Bay Mohamed Al Kabir in the Western Bayk region.

Keywords: Prisoners; Piracy; Thédnat; Baylik al-Gharbi; Bay Mohammed al-Kabir

مقدمة:

أدّى الانتشار الواسع لعمليات القرصنة المتبادلة بين الجزائر والبلدان الأوروبية في الحوض الغربي للبحر المتوسط إلى ازدياد أعداد الأسرى، فمنهم من كان يُفرج عنه بموجب نصوص المعاهدات الموقعة بين الجزائر وبعض الدول الأوروبية، في حين كان ينتهي مطاف الكثير منهم إلى العبودية، خاصة إن كانوا من البلدان العدوّة للإيالة الجزائرية، بينما حظي بعض الأسرى المتعلّمين بمناصب رفيعة في قصور الدَّايات والبايات، كما هو الحال لصاحب المذكرات قيد دراستنا، الأسير الفرنسي تيدنا، الذي وجد نفسه خزندار باي الغرب الجزائري محمد الكبير، والذي خلّف لنا مذكرات كتب فيها عن فترة أسره في الجزائر والتي هي في غاية الأهمية، ففيما تتمثّل القيمة التاريخية لهذه المذكرات؟

نسعى في هذه الدراسة إلى إبراز القيمة التاريخية لمذكرات تيدنا، وذلك باستخلاص مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في بايلك الغرب، بالإضافة إلى التعرف على شخصية الباي محمد الكبير من منظور شخص أوروبي، واتبعنا في دراستنا هذه المنهج التاريخي الاستقرائي، إضافة التحليل والمقارنة.

1. التعريف بتيدنا:

ولد تيدنا دوفانت **(Thédnat Duvent)** سنة 1758م في يوزيس لانغدوك من عائلة كاثوليكية فرنسية ميسورة الحال، وقد عملت أسرته منذ صباه على أن يكون من علية رجال الدين، فوضعته في مدرسة كاثوليكية لكنّه فرّ منها، وانضمّ إلى فيلق الحامية العسكرية في كورسيكا، لكنّه سئم العمل العسكري، وفضّل العمل المدني الإداري، فأصبح كاتبا لوكيل مقاطعة، بعدها سافر إلى مدينة ليفورن **(Livourne)** ثم إلى مدينة قادس **(Cadix)** الإسبانية حيث عاش في منزل أحد أقرباء أبيه، وهناك مارس تيدنا مهنة تجارة البحر، وخلال رحلة بحرية كان ينقل خلالها براميل الخمر من مالقة إلى مرسيليا على متن سفينة إسبانية، وقع في قبضة قراصنة البحر التابعين لدايِ الجزائر (عميراوي، 2009، ص.24).

اقتيد تيدنا أسيرا رفقة من كانوا معه على متن المركب إلى الجزائر العاصمة، أين بِيع في السوق إلى تاجر يهودي، حاول تيدنا أن يتخلّص من العبودية باعتباره فرنسيا، وذلك بنصّ المعاهدة بين الباب العالي وفرنسا في فيفري سنة 1536م، والتي نصّت في بندها العاشر على أنّ أي رعية فرنسي يتمّ أسره من مركب أو سفينة أو إقليم تابع للدولة العثمانية فيجب إخراجه فورا من حالة الاسترقاق إلى الحرية ويتمّ ذلك بطلب من السفير أو القنصل (محمد فريد بك وتح: إحسان حقي، 1981، ص.ص.224،227)،

لكن نصّ المعاهدة لم يخدم الإيالة الجزائرية، حيث منح امتيازات كبيرة لفرنسا، فاختار حكّام الجزائر اتّباع سياسة مستقلة بخصوص تعاملهم مع فرنسا، رغم تهديدات الباب العالي (قنان، 2007، ص.45).

لكن هذا لم يمنع الجزائر من إبرام معاهدات مع فرنسا بما يخدم مصالح كلا البلدين، وقد أبرمت فرنسا سنة 1695م معاهدة سلم نصّت في بندها الثامن أنّ "الفرنسيين الذين تمّ أسرهم تحت راية عدو الإيالة، لا يجوز استرقاقهم حتى ولو قام المركب الذي أُسِروا عليه بالدفاع عن نفسه، إلّا إذا كانوا من بحّارة هذا المركب أو جنود وأسروا بأيديهم أسلحة" (قنان، 2007، ص.342)، ومن سوء حظّ تيدنا أنّه كان عضوا في ذلك المركب الإسباني، وكما هو معروف فإسبانيا كانت العدوة اللّدودة للإيالة الجزائرية، لذا فقد فشلت مساعي تيدنا في محاولاته للنجاة من الأسر، رغم توسّله إلى القنصل الفرنسي لإنقاضه من الرِّق، لكنّه لم يتمكّن من ذلك، لأنّ أوراق الإبحار تبيّن جليّا أنّه عضو في هذا المركب، لذا وجب عليه أن يكون عبدا (عميراوي، ص.34).

غير أنّ الحظّ حالفه هذه المرّة، فقد كان باي معسكر محمد الكبير يبحث عن شخص متعلم ومخلص لإدارة شؤونه، وكان الباي –حسب تيدنا- يفضّل الفرنسيين ويثق بهم أكثر من غيرهم من الأجناس، فاشتراه وكيل الباي من اليهودي وأُخذ من الجزائر العاصمة إلى مدينة معسكر عاصمة بايلك الغرب آنذاك، وبحكم عمل تيدنا ككاتب وإلمامه بالشؤون الإدارية، استطاع الفوز بثقة الباي وعطفه، بل وأصبح بعدها خزندار بايلك الغرب، أي بمثابة وزير المالية، لبث تيدنا عند الباي مدة 3 سنوات و7 أشهر (1779-1782) إلى أن تمّ تحريره (عميراوي، 2009، ص.ص. 34-36، 40).

والجدير بالذكر أنّ الأسرى الذين كان يتراوح عددهم ما بين 12000 إلى 40000 في إيالة الجزائر حسب تقديرات المؤلفين الأوربيين ما بين نهاية القرن 17 وبداية القرن 18 (Cresti, 1987, p. 128)، لم حظو بنفس معاملة تيدنا، فالأسرى الذين لا يختارون للعمل كحراس أو خدم ولا يشتريهم الباعة يصبحون ملكا للدولة، فيستعملون للخدمة في الحجارة عبر طرق الإيالة، وفي ضيعات الدولة، أو في دار الصناعة بالجزائر وورشات بناء السفن (هلايلي، 2008، ص.69)، ومنهم من استعمل في الغسل والتنظيف وصيانة ثكنات الإنكشاريين حيث حظو بمعاملة جيدة مقارنة بغيرهم من العبيد المسيحيين (Pradis, 1898, p. 83).

2. شخصية الباي محمد الكبير من خلال المذكرات:

لقد أبدى تيدنا في مذكراته إعجابا واحتراما شديدين للباي محمد الكبير، فكان انطباعه لدى رؤيته له أول مرة هو انبهاره "عند رؤية منظره وأبّهة مجلسه"، ويسترسل تيدنا في وصفه للباي فيقول: "هو رجل في الأربعين أو الخامسة والأربعين، ذو وجه جميل، ولحية سوداء تظهره شديد البياض، وهي تنزل إلى منتصف صدره، وله شوارب من الشعر تنزل على كتفيه على الطريقة التركية" (عميراوي، 2009، ص.ص.38-39)، وقد كان الباي رجلا جسيما، لا بالطويل ولا بالقصير، كما كان محبّا للعلماء والصلحاء والأدباء (الزياني، 2013، ص.261).

كما نراه يصف الباي بأنّه شديد الإنسانية، طيّب السلوك، يمتلك ثقافة واسعة، ويحب الأجانب ولا يحتقرهم، تتملّكه في بعض الأحيان موجة غضب لا يمكنه السيطرة عليها، كما يذكر أنّ الباي كان يتقن عدّة لغات منها اللغة الفرانكية والإيطالية وهي اللغة التي كان يتكلّم بها مع تيدنا (عميراوي، 2009، ص.39)، واللغة الفرانكية هي خليط من العربية والإسبانية والتركية والإيطالية وقد كانت هي واسطة التواصل في مدينة الجزائر التي تنوّعت بها الأجناس وتعدّدت من عرب وأتراك وأوروبيين (سبنسر، 2006، ص.102).

لقد حظي الباي محمد الكبير بنصيب وفير من أوصاف المؤرخين ونال قدرا عظيما من مدحهم وثناءهم، خاصة بعد تحريره لمدينة وهران عام 1792م، واسمه الكامل هو محمد بن عثمان الكردي، ولقّب بالكبير بعد تحريره لمدينة وهران، اتّصف بالشجاعة والذكاء الحاد، كما أظهر براعة في الحكم، وإصابة في التفكير، وحسنا في التسيير، تمّ تعيّينه بايا على المنطقة الغربية، استجابة لرغبة الرعية (ابن هطال التلمساني، 1969، ص.ص.15-17)، عُرِف أيضا باهتمامه بالعمران والعلم، حيث بنى المساجد بمعسكر وجدّد القديم منها، وأجرى الماء للمدينة، كما بنى القناطر وحصّن المدينة بسور ونصّب عليه المدافع لحمايتها، وأحلّ السلام بمنطقة بايلك الغرب، وكثيرا ما كان يخرج لتأديب القبائل العاصية كأمثال حميان والأغواط (ابن سحنون الراشدي، 1973، ص.ص.130-133).

باشر الباي محمد الكبير منذ توليه الحكم أعمال تشييد كبرى من أجل تزيين مدينة معسكر وتحسين مقدرتها الدفاعية، حيث ركّز الجهود لا سيما على تهيئة منابع المياه وبنائه للنافورات والأحواض بالمساجد، والمدارس والمنازل السكنية، كما زوّد المدينة بجسور وتحصينات ومعاقل مسلّحة، وشيّد السوق القديم من أجل النشاطات التجارية (شنتوف، د.س، ص.102).

يذكر تيدنا بعض المعارك التي خاضها الباي محمد الكبير ضد الإسبان، حيث كان الباي يخرج في شهر رمضان لغزو الإسبان المقيمين في مدينة وهران، وذلك تقرّبا إلى الله تعالى بالجهاد في هذا الشهر

الفضيل، لكنّ تيدنا قد أبدى امتعاضه من غزوات الباي والتي وصفها بـ"مهمّة التسلية" (عميراوي، 2009، ص.50)، وقد كان الباي يقوم بهجومات متواصلة بكل بسالة وضراوة، وكان الإسبان بدورهم يزدادون ثباتا في مواقعهم، ويقاتلون قتال المستميت (المدني أ.، ص.525)، وفي سنة 1792م حرَّر الباي محمد الكبير وهران من يد الإسبان التي كان محاصرا لها، حيث أعلن الإسبان استسلامهم وخرجوا منها، وجاءت البشائر للجزائر بفتحها، وانتقل الباي محمد إليها وسكنها، وصارت مسكنا للبايات من بعده، ودخل الناس إليها وعمروها وبنيت فيها المساجد (المدني، 1974، ص.63)، وكان دخوله إليها يوم 29 فيفري 1972 بعد أن غادرها حاكمها الإسباني الدون جون كورتين، ولم يلبث الباي إلّا أياما بعد تحريره لوهران حتى توفي قرب مدينة مازونة (عباد، 2012، ص.173).

كانت وهران بعدما أخلاها الإسبان في وضعية بائسة، لذا عمل الباي على تطويرها وإعادة إعمارها بالسكان، فوجّه نداءً للمدن والقبائل المجاورة من أجل تعميرها، وقد استجابوا له وأتوا من تلمسان ومعسكر والمدية وملیانة، كما استجلب إليها يهودًا من مستغانم ومعسكر وتلمسان ومنحهم مساحات واسعة بأسعار زهيدة، وذلك من أجل الاستفادة من خبراتهم في الصناعة الحرفية وعلاقاتهم التجارية، وهكذا تمكّن الباي محمد من إحياء التجارة المحلية ونسج مبادلات بحرية مع البلدان المتوسطية الأخرى (شنتوف، د.س، ص.103).

3. جوانب من حياة المجتمع في بايلك الغرب:

تزخر مذكرات تيدنا بالعديد من المعلومات عن حياة المجتمع الجزائري في المناطق الداخلية بعيدا عن الساحل، وبحكم مكوثه في منطقة بايلك الغرب لأكثر من ثلاث سنوات، فإنّه كان قد اطّلع على بعض جوانب الحياة الاجتماعية في المنطقة وحال السكان بها وهذا بحكم مرافقته لسيده الباي في كل تنقلاته، وكذلك ما كان يحدث من علاقات بينه وبين مختلف شرائح المجتمع الجزائري، وهذا ما نستشفّه من بعض الأحداث التي ذكرها في مذكّراته.

أشار تيدنا كثيرا إلى وجود السهول الخصبة الشاسعة في الجزائر، وقد عبّر في كثير من الأحيان عن أسفه لعدم وجود من يستصلحا ويزرعها، حيث يقول أثناء خروجه مع الباي في محلّته: "واجتزنا الجبال والسهول الخلابة التي من الممكن أن تكون خصبة جدّا، وهي غير مسكونة" (عميراوي، 2009، ص.47)، ويذكر في موضع آخر أنّه أثناء مرافقته للباي في إحدى غاراته على القبائل المحلية، شاهد أجمل السهول، كما تأسّف على عدم استغلالها فيقول: "ولكن إنّها لخسارة، إذ لم نر ولو دوارا واحد،

فكانت شاغرة من سكانها وغير مزروعة رغم الخصوبة التي تظهر منها" (عميراوي، 2009، ص.59)، في إشارة منه إلى هذا السهل الواسع الذي تحسّر على عدم استغلاله.

والرأي نفسه أبداه القنصل الأمريكي وليام شالر الذي أعجب كثيرا بالسهول والهضاب الجزائرية الخصبة، وقد ذكر أنّ هذه السهول بمقدورها إنتاج أرفع أنواع الخضراوات لو يتاح لها سكان مجتهدون ويعرفون الزراعة (شالر، 1982، ص.30)، ونحن نرى أنّ معظم السهول الجزائرية لم تكن مستغلة لأنّها لم تكن مأهولة بالسكان وذلك راجل إلى عدة أسباب منها: عدد سكان الجزائر القليل آنذاك، كما غلب الطابع البدوي على سكان المناطق الداخلية للجزائر، والذين كان معظمهم بدوا رحّلا، يعتمدون في نمط عيشهم على الرعي أكثر من الزراعة، كما كان للسياسة التركية دورها في عدم استقرار السكان وزراعتهم للأرض، حيث كانت معظم القبائل الجزائرية مطاردة من قبل البايات لأسباب عديدة.

يصف تيدنا أيضا السهول القريبة من مدينة معسكر التي تتميّز بخصوبتها وشساعتها، والتي شاهدها عن كثب، ويذكر أنّها "ممتلئة بالحبوب وكثيرة الجِمال" (عميراوي، 2009، ص.47)، فقد كان سكان المنطقة يزرعون الحنطة والشعير أكثر من أي حبوب أخرى، وكان يذهب الفائض منها للتصدير إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وغيرها (شالر، 1982، ص.ص.29-30)، وكانت تصدّر شحن كبيرة من القمح والشعير التي تنتجها الأراضي التابعة لبايلك الغرب إلى الكثير من الدول الأوروبية عبر ميناء مستغانم (عميراوي، 2009، ص.69).

ازدهرت زراعة الحبوب في الإيالة الجزائرية بالرغم من المشاكل كانت تعيق تطورها وازدهارها، والمتمثلة في التقنيات الفلاحية البدائية المستعملة في الخدمة الزراعية كوسائل الري، إضافة إلى الظروف الطبيعية الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري، إضافة إلى أنّه كان معرّضا للحملات العسكرية، ومهدّدا من قبائل المخزن المسلّحة، كما كان عرضة للأمراض والفيضانات والمجاعات (هلايلي، 2008، ص.155)، وقد اشتهرت معسكر ووهران بإنتاج الحبوب التي كانت تعتبر محصولا رئيسيا معدّا للاستهلاك الداخلي والتصدير الخارجي، ولذلك عمل البايلك للاستيلاء على أراضي الحبوب خاصة بنواحي وهران (هلايلي، 2008، ص.153)، وعن تصدير القمح يذكر سبنسر أنّه في النصف الأول من القرن الثامن عشر كان صاحب مَعامِل بريطاني مقيم في وهران يبعث كل سنة بين سبعة وثمانية آلاف طن من القمح من ميناء وهران إلى إنجلترا (سبنسر، 2006، ص.144).

وقد ساعد استقرار الحكم خاصة في الفترة ما بين 1724-1791م إلى ازدهار إنتاج الحبوب وتصديرها، لكن سرعان ما بدأت الأوضاع تسوء بعد عام 1791م، بسبب السياسة التي انتهجها بعض الدايات والمتمثلة في زيادة تصدير المحاصيل الزراعية وعلى رأسها الحبوب إلى الخارج عن طريق الشركات الأوروبية والمحتكرين اليهود، ممّا أدّى إلى إرهاق الفلاح الجزائري بالضرائب، وهذا ما أدّى إلى قلة الإنتاج وإهمال الزراعة (هلايلي، 2008، ص.155).

ذكر تيدنا أيضا أنّ المناطق الداخلية للجزائر يغلب عليها الطابع الريفي، حيث شكّل سكان الأرياف والبادية نسبة 90% من إجمالي سكان الجزائر البالغ عددهم آنذاك 3 ملايين نسمة (المشهداني، 2013، ص.421)، وقد شاهد أثناء ترحاله الكثير من الدواوير والقرى على طول طريقه من مدينة الجزائر إلى مدينة معسكر، وذكر أنّ سكان سهل مليانة هم من البدو ساكني الخيام وقد وصفها بأنّها "خيام سوداء تقاوم كل الأحوال السيئة" (عميراوي، 2009، ص.38)، والأمر نفسه بالنسبة للمجتمع بباليك الغرب والذي هو مجتمع قبلي أيضا، كما ذكر أنّ لكلّ قبيلة رئيسها، وهو المكلّف بقبض الضرائب من السكان وتقديما للباي وقت المحلّة، ويعطينا حمدان بن عثمان خوجة وصفا مفصّلا لهاته القبائل البدوية فيقول: "مهنتهم كلّها فلاحة، ومسكنهم تحت الخيام المصنوعة من الوبر، ليس لهم مستقر، ينزلون حيث يجدون المرعى لماشيتهم، ونظرا للأهمية التي يولونها للزراعة ولما يريدونه من حماية لغللهم وضمان أملاكهم، فإنّهم يدفعون طواعية ضريبة لرئيس الإيالة" (حمدان بن عثمان خوجة، 2005، ص.31).

وبحكم منصبه فقد احتكّ تيدنا بالعديد من السكان المحليّين، حيث كان ينظر إليهم نظرة احتقار، وفي العديد من الأحيان يسميهم البربر، بالمفهوم الأوروبي، كما نراه كل مرة يدعوهم بأسماء مختلفة فمرة يدعوهم بالجزائريين أو العرب والمحمديّين، وفي بعض المرة يسميهم بالمغاربة والموريّين (عميراوي، 2009، ص.ص. 50،52،53،57،62)، لكن القنصل الأمريكي شالر كانت له نظرة أخرى عن الجزائريين، حيث يقول: "ولكن هؤلاء السكان أبعد ما يكونون عن البربرية التي يصف بها البعض الجزائريين فإنّ في سلوكهم لياقة ومجاملة، وأنا وجدتهم في المعاملات اليومية دائما مهذّبين ومتمدّنين وإنسانيين، وأنا لم أكتشف فيهم حتى أعراض التعصّب الديني أو الكره للأشخاص لا يدينون بدين آخر غير دينهم" (شالر، 1982، ص.80).

كما وصف تيدنا الجزائريين بالشعب الجاهل، حيث ذكر أنّه لا يوجد في مدينة معسكر أكثر من 100 شخص يحسنون القراءة، وذلك أنّ الكثير منهم كانوا يطلبون منه كتابة الرسائل لهم بغية التقرّب

من أحد الشخصيات المعروفة أو من امرأة (عميراوي، 2009، صفحة 57)، ونحن لا يمكننا الأخذ بهذه النظرة الدّونية التي ينظر بها تيدنا للجزائريين ولا الجزم بصحة ادّعائه، ذلك أنّ مدينة معسكر التي كان مقيما بها احتوت على العديد من المدارس والزوايا، كما قام الباي محمد الكبير بتأسيس مدارس تابعة للمساجد وحبس بها الكتب، حيث بنى المدرسة الجليلة بخنق النطاح، وبنى أيضا مدرسة تابعة للجامع الأعظم بمدينة معسكر (المزاري و تح: يحي بوعزيز، ص.ص.294-295)، وكان الكثير من سكانها إن لم نقل معظمهم متعلّمين، هذا وقد تحدّثت الكثير من المصادر عن انتشار التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني، بل وقد شهدت تقارير الباحثين الفرنسيين غداة الاحتلال أنّ عدد المتعلّمين في الجزائر عندئذ كان يفوق عدد المتعلّمين في فرنسا (سعد الله، 1998، ص.ص.316-317).

لكن هذا التعصّب والتحيّز لم يمنع تيدنا من تكوين علاقات صداقة مع بعض الجزائريين، خاصة أبناء الطبقة المرموقة، لدرجة حضوره في مناسباتهم الخاصة، حيث يذكر أنّ معاملته الحسنة لهم قد جلبت مودة الجميع له، "حتى أصبح الأهالي يقولون إنّها خسارة أن أكون مسيحيا، وتمنّوا أن أكون مسلما" (عميراوي، 2009، ص.49).

ذكر تيدنا أيضا أنّه أثناء مرافقته للباي في محلّته تعرّف على أشياء كثيرة عن الآداب والسلوك الخاصة بالجزائريين، خاصة بعدما أجاد اللغة العربية، وشاهد عن كثب حياتهم اليومية، وعاداتهم وتقاليدهم، فقد حضر عددا من حفلات الزفاف التي كان يدعوه إليها بعض أصدقائه من الشباب المرموقين، وقد وصف بالتفصيل كيف تتمّ حفلات الزفاف في مدينة معسكر، كما ذكر أنّ سن العروس لا يزيد عن 13 أو 14 سنة (عميراوي، 2009، ص.ص.60-61)، وقد كانت حفلات الزواج الجزائرية تختلف حسب الظروف المالية للعائلات، وحسب المجموعة الاجتماعية المعنية، وحسب التنوّع المدني والريفي، ففي المجتمع الريفي يتمّ الزواج ببساطة، أمّا المجتمع المدني والطبقة المرموقة فيستمر حفل الزفاف لسبعة أيام (سبنسر، 2006، ص.117).

أمّا في حالات الطلاق فقد كان الأب يأخذ أولاده الذكور والأم تأخذ بناتها الإناث، وقد استغرب تيدنا من هذا السلوك ذاكرا أنّ الأمهات المسيحيات يتمنين الموت على أن يتخلين عن أبنائهن، أمّا في الوفيات فقد وصف حالة الحزن التي يعيشها أهل الميّت، كما وصف عملية تغسيل الميت ودفنه (عميراوي، 2009، ص.62)، كما أعجب بحبّ الجزائريين للفروسية والصيد حيث ذكر أنّه أصبح يحسن ركوب الخيول العربية وإطلاق الرصاص من البندقية في الوقت نفسه بكل سهولة مثلما يفعل الجزائريون (عميراوي، 2009، ص.57)، وقد عُرِف المجتمع الجزائري بوجود فرسان ممتازين يتّسمون

بكثير من الشجاعة والمهارة، عندما يركب الواحد منهم لا يتردد في محاربة عشرين أو ثلاثين شخصا، وله القدرة على ردّ هجوماتهم (حمدان بن عثمان خوجة، 2005، ص.37).

تمكّن تيدنا أيضا من رؤية النساء الجزائريات والتعرّف عليهن، عكس العديد من الغربيين الذين لم يتسنّ لهم ذلك، فقد ذكر وليام شالر في مذكراته أنّ الأجانب قلّما تتاح لهم الفرصة لرؤية امرأة جزائرية (شالر، 1982، ص.79)، وبحكم منصب تيدنا في قصر الباي فقد كان على اتصال بحريم الباي بل وكوّن صداقات مع عدد منهن، كما أنّ ميله للعبث والفجور جعله يتواصل مع العديد من النساء اللّواتي يمارسن الدعارة، وحتّى مع بعض الوصيفات اللّاتي تخدمن في القصر، وهذا ما كاد يودي بحياته في عدد من المرات (عميراوي، 2009، ص.ص.63-66)، وما كان يردع عبثه هو صرامة العقاب، حيث أنّه إن كُشِف أحد النصارى مع امرأة مسلمة، فيجب أن يشنق (عميراوي، 2009، ص.50)، وتوضع المرأة حيّة في كيس ومعها حجر ثم ترمى في البحر (سبنسر، 2006، ص.119).

لم يتحدّث تيدنا كثيرا عن النساء الجزائريات، غير بعض النساء اللواتي جمعته بهن علاقات محدّدة، في حين نرى أنّ المرأة الجزائرية نالت حظّها من كتابات الغربيين، حيث يذكر الطبيب والرحالة الألماني هابنسترايت أنّ النساء الجزائريات غائبات عن الحياة العامة، ويتميّزن باحتشامهنّ الشديد، فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب (ج.أو.هابنسترايت وتر وتع: نصر الدين سعيدوني، ص.47)، فكنّ يرتدين سراويل عريضة تصل إلى العقب ويرتدين فوقها الحائك عند خروجهن، كما ذكر شالر أنّ النساء الجزائريات يتمتعن بقدر كبير من الجمال، حيث يتميّزن بجمال القامة واعتدالها، كما يتميّزن بالعيون الواسعة والحواجب الكبيرة (شالر، 1982، ص.ص.85،79).

4. نظرة تيدنا للإسلام والمسلمين:

لقد حاول تيدنا فهم العالم الإسلامي والمسلمين، لكنّه لم يوفق في ذلك، فنراه يستهزئ بشعائر المسلمين ويصفها بالخرافات والأوهام، وأحيانا نراه يبدي إعجابه في تمسك الجزائريين بدينهم، وكثيرا ما أبدى الأجانب إعجابهم بإخلاص الجزائريين لدينهم، وفي هذا الصدد يقول وليام شالر: "إنّهم يدينون بالإسلام ويقومون بكلّ مواظبة وإخلاص بالواجبات التي يفرضها عليهم دينهم، ولكن بدون مباهاة أو تصنّع، ولا يضمرون عداوة للأشخاص الذين يسلكون طريقا آخر للحصول على رضا الله" (شالر، 1982، ص.80)، في حين نرى أنّ تيدنا قد ذكر أنّ المحمديين ينظرون إلى المسيحيين مثلما ينظرون إلى الكلاب، ويبدو أنّ سبب قوله هذا هو توبيخ الباي له عندما قام بضرب رجل مسلم بالسوط (عميراوي، 2009، ص.52).

يتحدث تيدنا كذلك عن شهر رمضان وصوم المسلمين، وأنهم يمتنعون في النهار عن الأكل والشرب والتدخين والتقرّب من نسائهم، ويضيف أنّ المسلمين يلتزمون بصيام شهر رمضان إلى درجة أنهم يفضّلون الموت على التخلي عنه (عميراوي، 2009، ص.50)، أمّا العالم الألماني هابنسترايت الذي صادف وصوله إلى الجزائر الأيام التي تسبق شهر رمضان، فذكر أنّ المسلمين يمتنعون عن الشرب والأكل أثناء اليوم طيلة الشهر حتى ظهور قمر الشهر التالي، وعند رؤية هلال العيد ينقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر رمضان وحلول عيد الفطر (ج.أو.هابنسترايت وتر وتع: نصر الدين سعيدوني، ص.83).

كما استغرب تيدنا من إيمان الجزائريين بالقضاء والقدر، حيث يقول: "يخضع العرب إلى أوهام مختلفة وخاطئة، بشكل يجعلهم ينسبون إلى السماء كل أفعالهم، وإذا اتهموا بجريمة ما فإنّهم لا يهربون لأنّهم كما يقولون إذا كتب الله العقاب، فإنّي سأعاقب أينما ذهبت، وإذا لم يكتبه فإنّي لا أخشى أي خطر" (عميراوي، 2009، ص.53)، إضافة إلى وصفه لجهاد الباي في رمضان بمهمّة التسلية (عميراوي، 2009، ص.50)، وتحدّث أيضا –بأسلوب تهكّميّ- عن الآذان والوضوء والصلاة، ووصف الطريقة التي تؤدّى بها، حيث وصل به الأمر إلى تقليد حركات المسلمين أثناء الصلاة وذلك لإضحاك أصدقائه بعدما عاد إلى بلده فرنسا (عميراوي، 2009، ص.63).

تحدّث تيدنا أيضا عن تقديس الجزائريين للأولياء الصالحين، والتبرّك بأضرحتهم، وقد خصّ بالذكر ضريح أحد الأولياء والمعروف باسم "سيدي الوالي" والذي وصفه بأنّه قديس الجزائريين الوهمي، وقد بلغت قداسة هذا الضريح والمسجد الذي بني عليه أنّ من دخله يكون في مأمن مهما فعل من جرائم، ولا أحد يستطيع إخراجه ولو كان الدَّاي نفسه، وقد لجأ تيدنا نفسه إلى هذا الضريح عندما أراد أن يتحرر من العبودية (عميراوي، 2009، ص.80)، ولا يخف على أحد تقديس الجزائريين للمرابطين والأولياء في حياتهم وبعد مماتهم، والأمر نفسه ذكره حمدان خوجة في قوله أنّ ضريح المرابط "يصبح موقّرا إلى درجة أنّ الابن لا يجرؤ على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه" (حمدان بن عثمان خوجة، 2005، ص.19).

رغم محاولات الباي ونسائه المتكررة إدخال تيدنا للإسلام، إلّا أنّه كان دائم الرّفض وظلّ متمسكا بدينه، حتى أنّ نسوة الباي كنّ ينادينه بمصطفى وسعين في كل مناسبة لإقناعه بدخول الإسلام، لكنه كان يواصل الرفض، وقد ادّعى أنّ الباي محمد الكبير قد هدّده وأجبره على التخلي عن دينه

وبأنّه سيجعله تركيا، فأجابه تيدنا بأنّه يفضّل الموت على أن يتخلّى عن معتقداته (عميراوي، 2009، ص.ص. 74-76).

خاتمة:

تحمل مذكرات تيدنا مادّة خبرية هامّة، قدّمت لنا معلومات قيّمة عن تاريخ المنطقة الغربية للجزائر خلال العهد العثماني، حيث تتجلّى قيمتها في المعلومات التي حملتها بين طيّاتها عن إقليم بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر، وعن حياة المجتمع الجزائري في تلك الفترة، وبحكم ملازمته للباي محمد الكبير لمدة تفوق الثلاث سنوات، فقد أعطى لنا تيدنا وصفا مفصّلا للباي وعقليته المتفتّحة وثقافته الواسعة، وصرامته في تطبيق الأحكام خاصة إذا ما حصل تعدّي على الآداب الإسلامية، كما زوّدنا بمعلومات هامة عن غزواته ضد الإسبان وغاراته على القبائل العاصية؛ تحمل هذه المذكرات أيضا معلومات ممتازة عن كيفية بناء المحلّة وتحركها، بحكم إشراف تيدنا شخصيا على بنائها وإدارة شؤونها، وكيفية جمعها للضرائب من قبائل المنطقة.

إنّ ما يميّز هذه المذكرات أيضا أنّها تعطينا معلومات نادرة عن عقلية الشخص الجزائري البدوي بعيدا عن عقلية سكان مدينة الجزائر والمناطق الحضرية، خاصة فيما تعلق بأفكاره ومعتقداته ومبادئه، حيث يصوّر لنا تيدنا مدى تمسّك الجزائري بدينه ومبادئه ولو على حساب حياته، كما يذكر لنا تيدنا بعض الهوايات التي كان يمارسها الرجل الجزائري كالصيد والفروسية، وبحكم أنّه لم يتحدث كثيرا عن القبائل المحلية في بايلك الغرب فهذا يظهر مدى تحفّظ هذه القبائل وتوجّسها من سلطة البايلك. تعطينا هذه المذكرات أيضا صورة أخرى عن المجتمع العميق بمدينة معسكر، وانتشار بعض المظاهر السلبية في الأحياء الفقيرة كالتسوّل والدعارة، وكذا التباين الملحوظ بين فئات المجتمع في مدينة معسكر من أغنياء وفقراء وعبيد، كما تظهر لنا مدى تنافس بعض أعيان المدينة وشيوخ القبائل للظفر بالمناصب، ولو كان الثمن إزهاق أرواح بعضهم البعض.

تمكنّا من خلال هذه المذكرات التعرف على نظرة معظم الغربيين للجزائريين، وعلى نظرتهم للدّين الإسلامي والمسلمين آنذاك، واستطعنا أيضا التعرّف على حجم الكره الذي كان يضمره الأوربيين تجاه الجزائر، والذي كان نتيجة الصراع الديني والسياسي بين البلدان الأوربية والجزائر في تلك الفترة، لكن هذا لا ينفي نظرة بعض الغربيين الموضوعية للجزائريين، ونعني بها بعض القناصل والرحالة الغربيين الذين كتبوا عن إيالة الجزائر وشعبها بشفافية، بعيدا عن التحيّز الديني أو العرقي.

وعلى العموم تبقى مذكرات الأسير تيدنا مصدرا تاريخيا غنيّا بمعلومات قيّمة عن منطقة الغرب الجزائري، والتي تحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب والدراسات الجادّة، لاستخلاص أهمّ محطات التاريخ السياسي والحضاري للمنطقة خلال العهد العثماني.

قائمة المصادروالمراجع:

1. ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد بن علي، (1973)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تح وتق: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة؛
2. ابن هطال، أحمد، (1969)، رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، تح وتق: محمد بن عبد الكريم، (ط1)، عالم الكتب، القاهرة؛
3. خوجة، حمدان بن عثمان، (2005)، المرآة، تق وتع وتح: محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر؛
4. الزياني، محمد بن يوسف، (2013)، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح وتق: المهدي البوعبدلي، (ط1)، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر؛
5. سبنسر، وليام، (2006)، الجزائر عهد رياس البحر، تع وتق: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر؛
6. سعد الله، أبو القاسم، (1998)، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، (ط1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛
7. شالر، وليام، (1982)، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر، تع وتع وتق: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر؛
8. شنتوف، الطيّب، دراسات في تاريخ الجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر؛
9. عبّاد، صالح، (2012)، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر؛
10. عميراوي، أحميده، (2009)، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيدنا أنموذجا)، دار الهدى، الجزائر؛
11. فريد بك، محمد، (1981)، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تح: إحسان حقي، (ط1)، دار النفائس، بيروت؛
12. قنان، جمال، (2007)، معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر؛
13. المدني، أحمد توفيق، (1974)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر؛
14. المدني، أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، دار البعث، الجزائر؛
15. المزاري، بن عودة، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا، ج1، تح ودر: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت؛
16. المشهداني، مؤيد محمود حمد، ورشيد رمضان، سلوان. أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518-1830؛ مجلة *"الدراسات التاريخية والحضارية"* ، العراق: جامعة تكرت، تكريت، *المجلد 05 (العدد16)*، ص. ص. 411- 455.
17. هابنسترايت، ج.أو، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس، تر وتق وتع: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس؛
18. هلايلي، حنيفي، (2008)، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، (ط1)، دار الهدى، الجزائر؛
19. Cresti, Federico, (1987), Alger à la période turque. Observations et hypothèses sur sa population et sa structure sociale, In : *Revue de l'Occident musulman et de la Mèditerranèe*, *N°44, pp.* 125-133 ;
20. De Paradis, Venture, (1898), Alger au XVIII Siècle , Typographie Adolphe Jourdan, Alger ;